الصناعة والمعادن في الحجاز خلال العصر الايوبي

(569 – 639هـ/ 1173 – 1241م)

Industry and Minerals in the Hijaz during the Ayyubid era

(1173-1241AD\ 569-639AH)

الباحثة: هالة عبد الكريم عبود السامرائي[1]

Researcher: Halla Abdulkareem Abood Al-Samarra'i[1]

E-mail: hallaabdalkareem@gmail.com

أ.د. عبد الجبار محسن عباس[2]

Prof. Dr. Abduljabar Mohsen Abbas[2]

E-mail: dr.jabbar_mu@yahoo.com

جامعة سامراء/ كلية التربية[1][2]

University of Samarra\College of Education[1][2]

الكلمات المفتاحية: الصناعة، المعادن، الحجاز، مكة المكرمة، المدينة المنورة.

Keywords: industry, minerals, Hijaz, Mecca, Medina.

الملخص

تُعد الصـــناعة الرافد الذي يرفد الحياة الاقتصـــادية للدولة، وتعتمد الصـــناعة على وجود المواد الأولية الخام الى جانب وفرة الأيدي العاملة، بالتالي فإن الصـــــناعة تســـــاهم في إنعاش الجوانب الحياتية العامة بما ينتج عنها أشـــياء ضـــرورية وأخرى كمالية للمجتمع، والصـــناعة في الحجاز كان يغلب عليها طابع البداوة والبســاطة بســبب البيئة الصــحراوية الغالبة على أراضــيه، لذلك لم تشــهد الصــناعة في الحجاز تقدماً ملحوظا بل وظل تطور الصــناعة الحجازية كما كان حالها في العصور السابقة.

Abstract

Industry is the main source that nourishes the economic life of a country. Industry relies on the availability of raw materials as well as an abundance of labor. Therefore, industry contributes to revitalizing various aspects of public life by producing necessary and luxury goods for society. In the Hijaz region, industry was predominantly characterized by simplicity and modesty due to the prevailing desert environment. As a result, the industrial sector in the Hijaz did not witness significant progress and remained relatively undeveloped compared to previous eras.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبي المرسلين محمد (صلى الله عليه وسلم) وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد...

ارتكزت الصـناعة خلال العصـر العباسـي على الصـناعة اليدوية وهي بدائية، اذ كان يعتمد الانسـان في تصـنيعه للمواد على جهده وطاقاته العضـلية وهذا الأمر ينطبق على الحجاز خلال العصـــر الأيوبي، ونظراً لأن طابع البداوة هو الغالب على حياة الحجازيين بســـبب البيئة الصـحراوية، لذلك لم تشـهد الصـناعة فيه تقدماً ملحوظا خلال العصـر الايوبي بل وظل تطور الصـناعة الحجازية كما كان حالها في العصـور السـابقة، يغلب عليها البسـاطة، لكن بالرغم من ذلك فإن الصناعة في الحجاز لم تعدم تماماً بل وجدت فيه بعض الصناعات الضرورية.

وقد تم تقسـيم البحث الى مقدمة وأربعة أقسـام وهي؛ أولاً: الصـناعات النسـيجية، ثانياً: الصناعات الغذائية، ثالثاً: الصناعات المعدنية، رابعاً: صناعات متفرقة، فضلا عن خاتمة وقائمة بهوامش البحث.

أولاً: الصناعات النسيجية

من الصـناعات القديمة المعروفة في الحجاز هي صـناعة الغزل والنسـيج التي توارثها الأجيال عبر عقود تلبية للحاجات المتنامية إلى منتجاتها كالثياب والأقمشـــة والخيام والبســـط والسـتور وغيرها[1]، فقد كانت النسـوة في الحجاز يصـنعن بعض الملابس الصـوفية من أوبار الجمال وأصوافها وكانت تسمى عند سكان الجزيرة العربية دفئاً لأنه يتخذ منه ما يستدفأ به[2] كما يشتهر في الحجاز كساء يصنع من الصوف وهو من الثياب الغليظة يسمى الأبنجان [3] كما تم تصـنيع الثياب الناعمة والزاهية الألوان بالحجاز التي صـنعت للأمراء وسـادات القبائل الأثرياء والتجار، فضلاً عن تصنيع الثياب الشعبية البسيطة الغليظة والخشنة نسبياً بالغزل والحياكة والتي كان يلبسها العبيد وفقراء البدو والحضر وبعض الملابس كان يتم تصنيعها بخلط خيوط الصوف مع الحرير والتي تسمى ثياب القهز[4]، وذلك لإضفاء ملمساً ناعماً لتلك الانسجة الخشنة[5]، كما كانت النساء البدويات ينسجن الخيام من شعر الماعز أو الوبر أو الصوف التي تؤخذ من الابل أو الأغنام لأنه يسهل نقله معهم أينما ساروا أو رحلوا[6]، ولازال هذا النوع المنسوج من المساكن يتم صنعه الى يومنا هذا[7].

كما صنع اهل الحجاز الأنسجة المختلفة عن طريق خياطتها والتي كانت إما من الإنتاج المحلي أو المستوردة من الخارج على شكل عباءات وخرق وشّمل خاصة بالرجال والنساء[8] وهذا ما ذكره (ابن جبير) عندما كان سرو اليمن يجلبون معهم الميرة الى مكة عند قدومهم الى الحجاز مرتين في السنة فيغرقون اسواق مكة بالبضـائع من الطعام والإدام والفاكهة وهم لا يبيعون ميرتهم

بالنقود وإنما يقومون بمقايضـــة أهل مكة بما صـــنعوه واعدوه لهم من الخرق والعباءات والأقنعة والملاحف السميكة الصنع والشمل وما شابه ذلك مما يرتديه الأعراب [9]، فقد اشتهر أهل مكة بصناعة النسيج نظراً لتزايد الطلب على هذه المنتجات لسد حاجة أسواق مكة التي تستقبل آلاف الحجاج والتجار والمعتمرين على مدار الســنة كالخيام التي تنصــب للحجيج في عرفات ومنى، كذلك تصنيع ما تتطلبه حاجات المنازل والأسواق من أثاث منزلي كالفرش والستور والبسط من الصوف وشعر الماعز، وقد عرفت مر الظَّهرانُ[10] بهذه الصناعة التي نسبت إليها فيقال ثوب ظهراني[11].

وهذا لا يعني أن أهل مكة المكرمة هم وحدهم من قاموا بصـــنع تلك الانســـجة إنما قام سكان المدن الحجازية بصنع العديد من الانسجة المختلفة واشتهروا بها واتخذوا من أسواق مكة المكرمة مركزا لتسويق بضائعهم وتصريفها لما عرف عنها بأنها مركز ديني وتجاري يستقطب الملايين سنويا من الحجاج والتجار لأداء مناسك الحج والعمرة.

وارتبطت صـــناعة صـــباغة الملابس إلى جانب صـــناعة الغزل والنســـيج، فقد كان الصباغون يقومون بهذا العمل في حوانيتهم لقاء أجرة معينة يدفعها صاحب الملابس إذ يستخدم الصباغون الألوان المستخرجة من النباتات لصباغة الملابس والأقمشة كالعصفر والزعفران[12].

ثانياً: الصناعات الغذائية

عرف عن سكان الحجاز تصنيع أنواعاً مختلفة من الاطعمة ومنها الحلوى المكونة من العسل والسكر المعقود إِذْ يُخبرنا (ابن جبير) انه شاهد أهل مكة المكرمة وهم يصنعونها، وبأنها غريبة الصنع يتم تشكيلها على صفات مختلفة منها على شكل إنسان أو على شكل فواكه مختلفة كأنها العرائس، كما كانوا يضيفون إليها الفواكه الرطبة واليابسة[13].

ولكثرة أشجار النخيل وإنتاج التمور في مدن الحجاز والتي شكلت الغذاء الرئيس لسكانها تم تصنيعهم للدبس والخل بكثرة[14]، وقد اشتهرت ثقيف بالطائف بجودة صناعتهم للخل[15] ومن نواة التمر يتم طحنه وتقديمه علفاً للإبل[16].

كما كان سكان الحجاز يصـنعون الجبن من اللبن الحامض والذي يسـمونه الأقط[17]، فضلا عن تصنيعهم للسمن الذي وصف (ابن جبير) مذاقه بقوله: ((وانواع اللبن فيها في نهاية من الطيب، وكل ما يصنع منها من السمن فأنه لا تكاد تميزه عن العسل طيباً ولذاذة))[18].

وعن تجفيف الحبوب والفواكه فقد برع بها الحجازيون إذ كانوا يأخذون القمح أو الذرة وقت نضوجها ثم يقومون بشوائه بالأفران ليتم تيبيسه ومن بعدها يجش تم يطبخ وهو ما يسمى بالفريك[19].

وعن تجفيف التمر فقد ذكر (ابن جبير) ان اهل مكة المكرمة كانوا يصـــنعون عندما ينضـج التمر بأن يبسـطونه على الأرض حتى يجف قليلاً، ثم يرصـونه في سـلال بعضـها فوق بعض ثم يتم رفع التمر ووضعه في المكان المخصص للتجفيف[20]، فضلاً عن التمور فقد عرف سكان الحجاز بتجفيف مختلف أنواع الفواكه ومنها العنب الذي اشتهرت الطائف بإنتاجه وتجفيفه الى زبيب [21].

ثالثاً: الصناعات المعدنية

احتوت أرض الحجاز على معادن عديدة ومختلفة بعضـــها له أهمية وقيمة ثمينة مثل؛ الذهب، والفضة، والاحجار الكريمة[22]، وبعضها أقل اهمية من حيث القيمة النقدية لكن له اهمية كبيرة في الصناعات الحربية مثل الحديد، والنحاس[23].

وقد اشـــتهرت المدينة المنورة بصـــناعة الحُلي اذ يتوفر معدن الذهب الخام في الحجاز بالقرب من المدينـة المنورة[24]، ويذكر (ياقوت الحموي) عن مناطق تواجد الذهب في الحجاز بقوله: ((أن معدن النقرة – اي الذهب – في الطريق من المدينة إلى البصـــرة))[25]، كما يوجد الذهب بين اليمامة ومكة وهو من أشـهر معادن الذهب في الحجاز لنقاوته[26]، وعرفت أراضـــي بني سـليم جنوب شـرق المدينة بوجود العديد من المعادن فيها أهمها الذهب والفضـة والحديد[27]، وهناك مناجم أخرى اســتخرجت المعادن منها ناحية الفُرع بين مكة والمدينة[28]، كما يوجد بجبال السـراة جنوب مكة العديد من مناجم التعدين التي يسـتخرج منها المعادن[29]،وفي شـمال الحجاز توافر معدن النحاس والذهب والفضـة بالقرب من الحِجر[30]، فضـلاً عن اسـتخراج الذهب واللؤلؤ من البحر الأحمر[31].

وتذكر المصـــادر عن اللؤلؤ المســـتخرج من بحر الحجاز لم يكن معظمها من النوعية الجيدة كالذي اسـتخرج من مغاصـات الخليج العربي[32]، إذ وصـف بأنه أجوف منفوخ لا لون له ويتميز بأحجامه الكبيرة قد تصـل وزن الواحدة منها لخمسـة مثاقيل، ومن أشـهر مغاصـات اللؤلؤ في الحجاز مغاص المنحوس وهو موضـــع من بحر القلزم يقع بين جدة وأيلة[33] بينما تميزت لآلئ مغاصات السرين[34] بالأحجام الصغيرة والدقيقة[35].

وكان معدن الفضـــة يسـتخرج من الرضـــراض[36] ولم يكن له نظير في النقاوة[37]، كما اشـــتهرت أرض الحجاز بوفرة انتاجها للأحجار الكريمة التي يصـــنع منها أدوات الزينة وخاصـــة الخواتم ذات الفصـوص المتنوعة، ومن أشـهر تلك الأحجار هي الزمرد الذي اسـتخرج من خيبر ووادي القرى والذي تميز بشفافيته العالية واكتسب شهرة بأنه من أجود أنواع الزمرد[38]، كما يوجد العقيق في الحجاز[39]، كما توجد معادن اللازورد في جبال الســـراة[40] كما اســـتخرجت من حرة النار لبني سليم العديد من المعادن أشهرها معدن الدُّهنج[41] وتصنيعه كفصوص للخواتم[42]، كما

احتوت أسواق الحجاز على كميات كبيرة من الجواهر والحلي المستوردة من الهند[43]، لذلك عُرف عن الحجازيون ممن يحترفون مهنة الصياغة بصناعة مختلف انواع الحلي من الذهب والأحجار الكريمة في حوانيت خاصة بتلك الصناعة والتي كانت تتزين بها النساء اذ تفننوا في صنع اشكال مختلفة من الأساور والعقود والخواتم والخلاخيل الذهبية[44]. ويذكر أنه كانت هناك قرية تابعة للمدينة المنورة تسمى قرية زهرة بها حوالي ثلاثمائة صائغ[45]، ومن هذا العدد الكبير من الصاغة لو تم إجراء إحصائية بعددهم وهم المتواجدين في قرية صغيرة فكم كان منهم بالمدن الكبرى مثل مكة والمدينة والطائف وغيرها من المدن المعروفة في الحجاز، وهذا دليل على كثرة ووفرة معدن الذهب في الحجاز وكثرة من يعمل بصناعة الحُلي فيه.

أما عن سك النقود فتعد من الصناعات ذات الأهمية الكبيرة لأنها تمثل هوية الحاكم والدولة التي تخضع لسيطرته، فقد سكّت النقود في الحجاز خلال عهد السيطرة الأيوبية على الحجاز وهى الدينار من الذهب والدرهم من الفضة و تعامل الناس بها في البيع والشراء المعروفين باسم الصلاحيين المنسوبين الى السلطان صلاح الدين الايوبي، وذلك في سنة (٥٨١ هـ / ١١٨٥ م)[46].

ثم سكّت بعد ذلك الدراهم النقرة وشاعت في الحجاز والمعروفة بالكاملية والمنسوبة الى السلطان الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب[47]، ثم تعامل الناس في الحجاز بعد ذلك بدراهم تسمى المسعودية نسبة إلى الملك المسعود يوسف بن الكامل الأيوبي[48]، والتي صنعت من الفضة الخالصة، وقد سكّت هذه الدراهم بعد أن أمر بضربها الملك المسعود عقب توليه أمر مكة المكرمة وذلك في عام (٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م)[49] والتي كثر التعامل بها في الحجاز بعد إصدارها[50].

وعن صناعة الأسلحة فقد قام الحجازيون بتصنيع بعض انواع الأسلحة التقليدية اللازمة للقتال وذلك لتوفر معدن الحديد بعدة اماكن من الحجاز، مثل صناعة السيوف والخناجر والسكاكين والدروع والرماح والنبال[51] والتي راجت صناعتها في مكة المكرمة والمدينة المنورة[52]، كما قام صناع الحجاز بصنع السهام التي كانت تصنع بالمدينة المنورة في موضع يسمى برقم المدينة او برقم غطفان بالقرب من مكة والتي ينسب إليهما السهام الرقميات[53].

رابعاً: صناعات متفرقة

عرف عن سكان الحجاز أيضاً بعض الصناعات اليدوية الأخرى مثل الصناعات الجلدية والتي كانت على جانب كبير من الأهمية والتي تعتمد على المادة الأولية المتوفرة من جلود الحيوانات سواءً محلية أو مستوردة التي تتواجد في الحجاز كالجمال والماعز والأغنام والبقر والغزلان والبغال وغيرها[54] لاحتياج الناس إلى الألبسة والزينة والأحزمة والأحذية، وسروج الخيل

ولِجُمها وما يحتاجه المزارعون من القِرَب[55]، والدلاء[56] وكذلك المزواد والحقائب والأوعية لمختلف الأغراض وما إلى ذلك[57]، وكانت تلك الصناعة تعرف بالخرّازة[58].

وقد عرف عن أهل الحجاز دباغة الجلود والصـــناعات الجلدية في مختلف مدن الحجاز خاصة أهل الطائف ومكة ومواضع حضرية أخرى بدباغة الجلود ومعالجتها وتصنيعها إلى مادة نافعة ومفيدة[59] اذ يذكر (الإدريسي) ان بالطائف تجار ميسوري الحال، وجُل بضائعهم مصنوعة من الأديم – أي الجلود وأديمها عالي الجودة رفيع القيمة[60].

ولاشـــتهار الطائف بالصـــناعات الجلدية كان يُطلق عليه بلد الدباغ[61]، ويذكر (ياقوت الحموي) إنّ الطائف هي بليدة صـــغيرة على طرف وادي وهي محلتان احداها يقال لها طائف ثقيف والأخرى يقال لها الوهط والوادي بين المحلتين تجري فيه مياه المدابغ التي يدبغ فيها الأديم يصـرع الطيور من رائحتها إذا مرت بها[62]، وكان الأديم الطائفي المنسـوب صـناعته الى مدينة الطائف لا يصـنع مثله في أي بلد اخر[63]، إذ اشـتهر في جزيرة العرب والعراق وبلاد فارس وما بين النهرين لجودته وقيمته المرتفعة[64] بل ويضـيف (ابن المجاور) عن صـنعة أهل الطائف في دباغة الجلود اذ يقول: ((...وجميع عملهم دباغ الأدم ويدبغ بها الأديم المليح الثقيل المعروف بها وهو الذي يصـــلح لخوارزم...))[65] لأنهم يبطنون به الخف[66] كما تصـــدر الجلود المدبوغة من الحجاز إلى الخارج بكميات كبيرة منها اليمن وخوارزم وبلاد فارس[67] وهذا دليل احترافهم لتلك الصنعة.

ومن دبغ الجلود صُـــنّع النعال الطائفي والذي كان مشـــهوراً في ذلك العصـــر لجودة صـناعته، وكان يسـتخدمه الرجال[68]، كما تم تصـنيع الخفاف وهو نوع من انواع الأحذية الذي كان يصنع من الجلود ويرتديه النساء والرجال[69].

كما اشـــتهر أهل مكة ببراعتهم في دباغة جلود الحيوانات[70]، ولشـــهرتهم كان مســـافرو خراسـان يشـترون جلود البغال من رسـتاق الموصـل وسـواد بابل وإربل ليدبغ في مكة[71]، وكان يجلب إلى مكة أوراق القرظ من وادي العقيق وجبال الطائف لدباغة الجلود[72]، فضـــلاً عن مكة فقد كان أهل المدينة المنورة قد عملوا بالصناعات الجلدية منذ صدر الإسلام[73].

وهناك بعض العوامل التي سـاعدت على اشـتهار الحجاز بصـناعة الدباغة أهمها المناخ المناسب من حيث درجة الحرارة، كذلك وفرة الأشجار المستخدمة أوراقها لدبغ الجلود، فضـلاً عن دور الحج كعامل أكثر أهمية في ازدياد أصحاب هذه الصناعة حيث الأضاحي الكثيرة التي تنحر في الموسم[74].

ومن الاوعية التي صنعت من الجلود هي الجبجبة وهو وعاء تسقى فيه الإبل، وينقل فيه التراب، وتنقع فيه بعض المواد الغذائية[75]، وصـناعة المِركَنْ كذلك من الجلود وهي إجانة تغسـل

فيها الثياب[76]، كما صـــنع أهل الحجاز من الجلود بعض الأغلفة التي توضـــع بها العطور، والقفدانة وهو غلاف للمكحلة[77].

كذلك عرف أهل الحجاز بصناعة واستخراج زيت القطران[78] الذي كان يؤخذ من شجرة تســمى غربة وهي شــجرة ضــخمة ذات أشــواك خضــراء يؤخذ منها القطران وحتى متوفرة بالحجاز[79].

ونظراً لتوفر حجارة الرحى في الحجاز فقد صـــنع اهل الحجاز الرحى لطحن الغلال في المنازل، كما كانوا يطحنون السدر وهو سويق النبق[80]، كما عرفوا صناعة الفخار التي تعتمد على نوعية معينة من الطين الذي يمزج مع الماء بنسب محدودة، فزودت هذه الصـناعة البيت الحجازي من الأدوات الفخارية المنزلية لحفظ مياه الشـــرب فيها، كأكواز الماء والجرار المختلفة الأحجام وصـنعوا بعض الاواني من الفخار لاستخدامها في الطهي[81]، وكذلك المجامر الخزفية التي تستخدم لوضع البخور[82]، كما اشتهر الصناع من اهل الحجاز بصناعة المسان وذلك لتوفر حجارتها في ينبع خاصة منطقة جبل رضوى[83]، والمسان أو ما يسمى حجر السن او حجر الشحذ هو نوع من الأحجار الطبيعية تستعمل كمادة آكلة لسن او شحذ أطراف أدوات التقطيع وجعلها أكثر حدة في القطع خاصة السيوف، ويسمى ايضاً حجر السحق[84]، وكان الصنّاع الحجازيون يقطعون هذا الحجر ويشذبونه ثم يقومون بتصديره إلى مختلف البلدان[85].

كما انتشرت في مرتفعات الحجاز الجبلية العديد من المحاجر التي يقطع منها صخور خاصة لصنع بعض الأدوات المنزلية ومنها قدور البرم من حجر البرم المصنوع منه[86]، وقد وصفت قدور البرم بأنّ حجرها يفخر على سائر الأحجار فهو حجر أملس ويتم التصنيع منه قدور لطهي الطعام وأواني لحفظ بعض الأطعمة كالتمور والعسل والخل[87]، وأهم المناطق التي تواجد بها حجر البرم في مرتفعات الســـروات بين مكة والطائف خاصـــة في قدقد[88]، ومعدن البرم[89]، ويسوم وبدبد[90].

كما اشتهر أهل جدة شهرة واسعة في صناعة السفن البحرية سوآءا كانت تجارية أو لغرض النقل أو غيرها لاســتعمالها في التجارة مع بلدان المشــرق الاســلامي عن طريق البحر الأحمر[91].

كما عرف سكان الحجاز مهنة البناء وتصنيع الطابوق من المواد البسيطة سواءً من الطين واللبن أو تكســير الحجارة من الجبال المحيطة بأراضــيه، وهي مهنة لها أهميتها في كل مجتمع لأهميتها في بناء المساكن والتحصينات والأسواق وغيرها[92]، مثل محاجر جبال الحلاءة وجبل الهيلاء والتي يقتطع منها الحجارة للبناء والإرحاء[93].

وكان لتصنيع العطور والأدوية أهمية كبيرة في حياة الناس، وصاحب هذه الصنعة يسمى العطار الذي يقوم بدور الطبيب والصيدلي وبائع العطور، إذ تدخل مواد العطارة في إعداد الطعام وتصـنيع الدواء والعطور التي تكون موادها الأولية محلية أو مسـتوردة وكان لهذه المهنة سـوقاً خاصاً بها يسمى سوق العطارين في مدن الحجاز المختلفة[94]، وتعد الطائف من المدن الحجازية التي اشتهرت منذ القدم بزراعة الزهور والرياحين والزعفران وصناعة العطور فيها[95].

كما اشـتهر سـكان الحجاز بالعمل في مهنة النجارة والتي اعتبرها (ابن خلدون) من ضـروريات العمران ومادتها الخشـب[96]، إذ انتشـرت العديد من الأشـجار في الحجاز المعروفة بصـلابة أخشـابها في اتخاذ جذوعها مادة أسـاسـية في الصـناعات الخشـبية مثل تسـقيف المنازل وصـناعة الأبواب والشـبابيك وأعمدة المنازل وصـنع الأدوات والأثاث المنزلي كالأقداح والأواني المنزلية والمناضـد وغيرها[97]، وتعتمد هذه الصـناعة على المواد الأولية المحلية والمسـتوردة من خشـب الأشـجار، إذ يتم اسـتيراد عيدان النخل وقشـر جوز الهند من الهند واليمن وبكميات كبيرة لأهميتها في الصناعات المنزلية وصناعة السفن التي تبحر في البحر الأحمر[98].

وكان يصـنع من خشـب النضـار وهو شـجر الأثل أنواعا مختلفة من الأقداح والأواني المنزلية وهو أجود الأخشاب لتصنيع الأواني فكلما كان منبت الشجرة جبلياً كان أقوى وأفضل[99]، ويطلق على من يقوم بقطع وتفصيل الأخشاب وتقعير القصَّاع والأواني الخشبية بالشعاب[100].

كما كان النجارون يزودون أهل البادية ما يقومون بنجارته من الاخشاب على شكل أعمدة وأوتاد لخيامهم، فضـلاً عن أدوات القتال التي تصـنع من الاخشـاب كالرماح والقسـي والنبال والأقواس[101].

كما يتم تصـنيع الرِّحالة من شـجر الذرح وهي أدوات توضـع على ظهر الدابة كالخيل ونجائب الابل ليتمكن الشـخص من الجلوس عليها[102]، بعد أن يتم تلبيس الرحالة بالجلود[103]، فضلاً عن صناعة الهوادج التي تتخذ لركوب النساء على الجمال[104].

كما تطلبت النجارة سد حاجة المزارعين من الأدوات الخشبية مثل صناعة خشبة المذرى وهي خشـبة ذات أطراف تسـتخدم لتنقية أكداس المحاصـيل الزراعية عند الحصـاد، وتسـمى في بعض الأماكن بالقفص[105]، كما يتم تصـنيع بعض الأدوات الخشـبية التي توضـع على رؤوس الآبار لتسهيل حركة الحبال لنزح الماء وتسمى النعامة[106]، فضلاً عن ذلك يقوم النجارون بصنع الأقفاص كبيوت للطيور ويستخدم في صناعتها مواد من القصب الجاف أو الخشب[107].

ونظراً لتوافر أشـجار النخيل في مدن شـمال ووسـط الحجاز فقد ازدهرت صـناعة العديد من الأدوات الزراعية والمنزلية التي يكون فيها خوص النخيل مادتها الأولية وهو سـعف النخيل وما يقتطع منها ومن ألِيافها مثل صـناعة السـلال والحبال والفقعة وهو وعاء كالقُفة والذي يصـنع

من مخلفات النخيل الخضراء إذ تدق ثم تيبس ويتم تشكيلها بشكل سلال الخوص[108]، كما تم تصنيع وعاء يتخذ من الخوص يسمى الجلة التي يوضع غالباً فيها التمر وكان الفلاحون لا يستغنون عنها في مزارعهم كما ويحتاج إليها التجار لحفظ ونقل بضائعهم فيها[109].

وكان صاحب هذه الصنعة يسمى الخواص وهو معالج الخوص وبائعه والخياصة عمله[110]، كما تم تصنيع الحصر مفردها الحصير من الخوص أو البردي لافتراش الأرض بها والجلوس عليها، واتخاذ الخوص كمادة أولية لصناعة بعض الخيام في شبه الجزيرة العربية[111].

وقد صُنّعت من ألياف أشجار السلب أنواع الحبال إذ يؤخذ من لحائه ويبرم على شكل حِبال تستخدم لأغراض الزراعة وري الأراضي، فضلاً عن تصنيع بعض أنواع السلال من هذه الشجرة التي نسب إليها في مكة والمدينة سوق معروف باسمها لما يحتويه من منتجات مختلفة صنعت من قشور ولحاء شجر السلب يسمى سوق السلابين[112]، وهذا يدل على وفرتها في مدن الحجاز.

الخاتمة

أظهر البحث عن **الصناعة والمعادن في الحجاز خلال العصر** الايوبي مجموعة من النتائج الاتية:

- بينت الدراسة ان الصناعة في الحجاز خلال العصر الأيوبي قد ارتكزت على الصناعة اليدوية وهي بدائية، وكانت تلبي حاجات المجتمع الحجازي من الصناعات المختلفة والتي تدخل في مفاصل الحياة الأساسية والفرعية للسكان سواءً كانت نسيجية أو غذائية أو معدنية أو جلدية أو عطرية وخشبية وغيرها وكان الصناع من أهل الحجاز أصحاب خبرة قديمة في هذا المجال مارسوا أعمالهم وأجادوها، وقد تم الاستعانة بالمادة الأولية محلياً أو يتم استيرادها من الخارج.
- احتوت أرض الحجاز على معادن عديدة ومختلفة بعضها له اهمية وقيمة ثمينة مثل؛ الذهب، والفضة، والاحجار الكريمة، وبعضها أقل اهمية من حيث القيمة النقدية لكن له اهمية كبيرة في الصناعات الحربية والزراعية مثل الحديد، والنحاس.
- إن منتوجات هذه الصناعات كانت تتناغم مع بيئة الحجاز الجافة والشبه صحراوية حيث الحجارة والأخشاب الصلبة والقاسية والتي يغلب عليها طابع البساطة وتداخل حياة البدو ومساكنهم وأدواتهم وملابسهم مع حياة أهل المدينة.

الهوامش والمصادر:

(1) ابن المجاور، محمد بن مسعود بن علي بن أحمد البغدادي النيسابوري (من علماء القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي)، تأريخ المستبصر صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، تح، ممدوح حسن محمد، ط1، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة، 1996م)، ص ٢٦.

(2)ابن منظور، جمال الدين بن مكرم بن علي الأنصاري (ت 711هـ/ 1311م)، لسان العرب، تح، عبد الله علي الكبير وآخرين، ط1، دار المعارف (القاهرة، د.ت)، ج1، ص77.

(3) ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص372.

(4) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله (ت 626هـ/ 1228م)، معجم البلدان، ط1، دار صادر (بيروت، 1975م)، ج4، ص418؛ السباعي، أحمد بن محمد أحمد، تاريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، ط1، المملكة العربية السعودية، (الرياض، 1419هـ/ 1999م). ص118-119.

(5)ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي (ت 779هـ/ 1377م)، الرحلة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط1، المطبعة الخيرية (1322هـ/ 1904م)، ج ١، ص ٩١؛ حسين، جميل حرب محمود، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ط1، دار تهامة، (جدة، 1405هـ/ 1985م)، ص٢٤١.

(6) ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص ٢٦-٢٧

(7) شلبي، أبو زيد، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الاسلامي، ط3، القاهرة، (1384هـ/ 1964م)، ص30 .

(8) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص231.

(9) محمد بن أحمد الاندلسي (ت 614هـ/ 1217م)، رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني (بيروت، د، ت) ص ١١٠- ١١١.

(10) مر الظَّهرانُ: وادٍ قرب مكة وعنده قرية تسمى مر الظهران التي تحوي عيون ماءٍ كثيرة ونخيل لقبائل أسلم وهذيل وغاضرة. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص63.

(11) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص63.

(12)السيف، عبد الله محمد، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، ط1، (الرياض، 1403هـ/ 1983م)، ص163.

(13) رحلة ابن جبير، ص ٩٨.

(14) الإصطخري، أبو إسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الكرخي (ت 400هـ/ 1009م)، مسالك الممالك، مطبعة بريل (ليدن، 1937م)، ص23.

(15) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل البكري (ت 395هـ/ 1004م) ديوان المعاني، ط1، دار الجيل (بيروت، 1990م)، ص292.

(16) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص277.

(17) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٣٢.

(18) رحلة ابن جبير، ص ٩٨

(19)ابن بكار، الزبير (ت 256هـ/ 869م)، جمهرة نسب قريش واخبارها، تح، محمود محمد شاكر، ط1، بيروت،

(1381هـ/ 1961م)، ص ٣٠٦؛ الأصفهاني، ابو الفرج علي بن الحسين (ت 356هـ/ 966م)، الأغاني، دار الكتب المصرية (1349هـ/ 1930م)، ج٦، ص ١٦.

(20) رحلة ابن جبير، ص ٩٩-١٠٠

(21) الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن ادريس الحموي الحسني (من علماء القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط1، مكتبة الثقافة الدينية (بور سعيد، د.ت)،ج ١، ص ١٤٤ ؛ ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص ٢٨-٣٢.

(22)شيخ الربوة، شمس الدين ابي عبد الله محمد أبي طالب (ت 727هـ/ 1326م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ط1، المطبعة الاكاديمية الإمبراطورية (بطرسبورغ،1865م)، ص67.

(23) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص245؛ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الاشبيلي (ت 808هـ/ 1406م)، مقدمة ابن خلدون، ط5، دار القلم (بيروت، 1984م)، ص82

(24) العباسي، الشيخ أحمد بن عبد الحميد (عاش في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي)، عمدة الأخبار في مدينة المختار، ط5، (مكة المكرمة، 1359هـ/ 1940م)، ج ٥، ص ٣٣١.

(25) معجم البلدان، ج ٥، ص ٨٨

(26) الاصفهاني، بلاد العرب، تح، حمد الجاسر وآخرين، ط1، دار اليمامة (الرياض، د.ت)، ص166؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص252.

(27) البكري، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي (ت 487هـ/ 1094م)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تح، مصطفى السقا، ط1، (القاهرة، 1364هـ/ 1945م)، ج3، ص1013؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص245.

(28) البكري، معجم ما استعجم، ج3، ص1021؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص341.

(29) البكري، معجم ما استعجم، ج4، ص1245.

(30) الحِجر: قرية لبني سليم بها عيون وآبار تنتهي حدودها عند جبل ليس بالعالي يقال له قنة الحجر، والحجر اسم ديار ثمود يقع بين المدينة والشام. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص221.

(31) المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي العبيدي (ت 845هـ/ 1441م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تح، محمد زينهم وآخرين، مكتبة مدبولي (القاهرة، 1997م)، ج ٣، ص ١٨٨ ؛ الحميري، محمد عبد المنعم الصنهاجي (ت 900هـ/ 1494م)،الروض المعطار في خبر الأقطار، تح، احسان عباس، ط2، مكتبة لبنان،(1984م)، ص ٤٨٤- ٤٨٥.

(32) التيفاشي، أحمد بن يوسف (ت 651هـ/ 1253م)، كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، تح، محمد يوسف حسن وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة، 1977م)، ص49.

(33) ابن ماسويه، يحيى (ت 243هـ/ 857م)، كتاب الجواهر وصفاتها، تح، عماد عبد السلام رؤوف، المجمع الثقافي (أبو ظبي، 1422هـ/ 2001م)، ص38.

(34) السرين: مدينة تقع في طريق مكة للقادم من اليمن، وهي من نواحي مكة واكثر زروعهم الذرة والسمسم. ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٣١٢

(35) ابن ماسويه، كتاب الجواهر، ص31.

(36) الرضراض: أو الرّضمة، من نواحي المدينة المنورة. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص51.

(37) الهمداني، لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت 344هـ/ 955م)، صفة جزيرة العرب، تح، محمد بن علي الأكوع الحوالي، ط1، مكتبة الارشاد (صنعاء، 1410هـ/ 1990م)، ص32.

(38) البكري، كتاب المسالك والممالك، تح، أدريان فان يوفن وآخرون، دار العربية للكتاب (تونس، 1413هـ/ 1992م)، ج1، ص361.

(39) البكري، المسالك والممالك، ج1، ص361.

(40) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص252.

(41) الدُّهنج: جوهر كالزمرد، وهو حصى لونها أخضر تحلى به الفصوص، أو تحك به الفصوص، ولفظ الدهنج فارسي معرب. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص277.

(42) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص246.

(43) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٨٦–٨٧

(44) المقريزي، الخطط المقريزية، ج ٢، ص ٩٧

(45) العباسي، عمدة الأخبار، ج ٥، ص ٣٣١ .

(46) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الحسني المكي المالكي (ت 832هـ/ 1428)، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ط1، دار الكتب العلمية (بيروت، د.ت)، ج ٢، ص ٢٣٠.

(47) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن عبد الله (ت 821هـ/ 1418م)، صبح الاعشى في صناعة الإنشا، ط1، دار الكتب الخديوية (القاهرة، 1914م)، ج ٤، ص ٢٧٥ – ٢٧٦.

(48) الملك المسعود: هو يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، ويلقب إقسيس بن الملك الكامل بن الملك العادل صاحب اليمن ومكة المكرمة ملك مكة سنة (620هـ/ 1223م) الذي انتزعها من حسن بن قتادة بعد أن تحاربا بين الصفا والمروة، وثبت عسكر الملك المسعود بمكة، وأمنت الطرق، وقلت الأشرار لعظم هيبته، توفي سنة (626هـ/ 1228م). ينظر: ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت 874هـ/ 1469م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح، محمد حسن، ط1، دار الكتب العلمية (بيروت، 1413هـ/ 1992م)، ج6، ص272.

(49) عبد العزيز بن فهد، عز الدين بن عمر بن محمد الهاشمي (ت 922هـ/ 1516م)، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تح، فهيم محمد شلتوت، ط1، دار المدني (جدة، 1406هـ/ 1986م)، ج ١، ص ٥٩٤.

(50) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٧٦

(51) الاصفهاني، بلاد العرب، ص30؛ ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص251.

(52) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤١٣ .

(53) الرقميات: أو الرقم، موضع بالمدينة والرقم جبال دون مكة بديار غطفان. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص ٥٨، ج4، ص413.

(54) السلمي، عرّام بن الاصبع (ت 275هـ/ 888م)، أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه، تح، عبد السلام هارون، ط1، (القاهرة، 1373هـ/ 1953م)، ص31؛ ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص23.

(55) القرب: نوع من المصنوعات الجلدية التي تستعمل لنقل المياه. ينظر: المقدسي،محمد بن أحمد البشاري (ت 387هـ/ 997م)،أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، مكتبة مدبولي (القاهرة، 1411هـ/ 1991م)، ص

. ٢٠٧

(56) الدلاء: وعاء أشبه بالدلو يصنع من الجلد أو ما يسمى السَعْنُ شكله مستطيل يميل إلى الاستدارة وهو يطلق أيضاً على نوع من القرب المستخدمة لتبريد الماء. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج13، ص208–209.

(57) المقريزي، الخطط المقريزية، ج ٣، ص ٣٠٠

(58) الخرّازة: أي خياطة الأدم وهي الجلود. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص811.

(59) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص260.

(60) نزهة المشتاق، ج ١، ص ١٤٤–١٤٥

(61) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص 233.

(62) معجم البلدان، ج4، ص9.

(63)البكري، المسالك والممالك، ج ١، ص ٣٢٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٤٨.

(64) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص102؛ ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص23، 36.

(65) تاريخ المستبصر، ص ٣٦

(66) ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص ٢٣

(67) ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص115.

(68) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٧٩.

(69)الشيزري،عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله (ت 589هـ/ 1193م)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تح، السيد الباز العريني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة (1365هـ/ 1946م)، ص٧٣

(70) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص260.

(71) ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص23.

(72) ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص32.

(73) البكري، جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك، تح، عبد الله يوسف الغنيم، ط1، دار السلاسل (الكويت، 1397هـ/ 1977م)، ص27.

(74)ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص24؛ الدباغ، مصطفى، جزيرة العرب موطن العرب ومهد الإسلام، ط1، دار الطليعة (بيروت، 1383هـ/ 1963م)، ص72.

(75) ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص252.

(76) ابن منظور، لسان العرب، ج13، ص186.

(77) ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص365.

(78) القَطِران: جاءت من القَطْر، أي ما قطر من الماء وغيره، وقَطَرَ الصَّمغُ من الشجرة يَقطُر قَطْراً والقَطِران هي عصارة تؤخذ من الشجرة تطبخ فيتحلب منه ثم تدهن به الابل. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص105.

(79) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٩٢

(80) ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص ٣٦

(81) ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص23؛ لوبون، جوستاف،حضارة العرب، ترجمة،زعيتر، ط4،(القاهرة، 1964م)،ص ٤٤.

(82) ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص144-145.

(83) جبل رضوى: وهو جبل يقع بالقرب من ينبع يُطل عليها من شرقيها. ينظر : ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٥١

(84)أبو الفدا، عماد الدين بن إسماعيل بن محمد بن عمر (ت 732هـ/ 1331م)، تقويم البلدان، ط1، دار الطباعة السلطانية (باريس، 1256هـ/ 1840م)، ص ٨٨-٨٩.

(85) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص98؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٥١.

(86) ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص45.

(87) ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص25.

(88) قدقد: جبل يقع بالقرب من مكة فيه معدن البرام وهو من الجبال التي لا يوصل الى ذروتها. ينظر: ابن عبد الحق، صفي الدين عبد المؤمن البغدادي (ت 739هـ/ 1338م)،مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح، علي محمد البجاوي، ط1، دار الجيل (بيروت، 1413هـ/ 1992م)، ج ٣، ص ١٠٦٨.

(89) معدن البرم: قرية تقع بين مكة والطائف كثيرة النخل والزرع ومياه الآبار. ينظر: السلمي، أسماء جبال تهامة، ص40، 46؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص154.

(90) يسوم وبدبد: وهما جبلان يقعان جنوب شرق مكة يحيطان بوادي تربة. ينظر: البكري، معجم ما استعجم، ج3، ص788.

(91) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٤٥، ٤٩ ؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج ٢، ص ١٥٩ ؛ فهمي, نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، ط ١، الهيئة العامة المصرية للكتاب (القاهرة، ١٩٩٧م)، ص ١٦١- ١٦٨

(92)السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت 902هـ/ 1496م)، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، تح، أسعد طرابزوني، ط1، دار الثقافة والنشر (القاهرة، 1399هـ/ 1979م)، ج1، ص107، 155.

(93) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص83.

(94) الفاسي، شفاء الغرام، ج1، ص454؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج1، ص255؛ السمهودي، علي بن عبد الله بن أحمد الحسني(ت 911هـ/1506م)، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تح، قاسم السامرائي، ط1، مؤسسة الفرقان (المدينة المنورة، 1422هـ/ 2001)، ج2، ص736.

(95) ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص9.

(96) مقدمة ابن خلدون، ص410.

(97) السلمي، أسماء جبال تهامة، ص31.

(98) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص47.

(99) ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص54.

(100) السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت 562هـ/ 116م)،الأنساب، تح، عبد الرحمن بن يحيى اليماني، ط1، دائرة المعارف العثمانية (الهند، 1397هـ/ 1977م)، ج3، ص430.

(101) ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص86.

(102) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص129.

(103) ابن منظور، لسان العرب، ج11، ص274–275.
(104) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص113.
(105) ابن منظور، لسان العرب، ج7، ص79، ج14، ص283.
(106) السلمي، أسماء جبال تهامة، ص46.
(107) ابن منظور، لسان العرب، ج7، ص79.
(108) ابن منظور، لسان العرب، ج8، ص289.
(109) ابن منظور، لسان العرب، ج11، ص118.
(110) الأزدي، أبو محمد عبد الله بن محمد (ت 456هـ/ 1063م)، كتاب الماء، تح، هادي حسن، ط1، وزارة التراث القومي (سلطنة عمان، 1416هـ/ 1996م)، ج2، ص55؛ ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص599.
(111) الأصفهاني، بلاد العرب، ص340.
(112) ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص473–474.